المقتطف

الجزء السادس من المجلد الرابع والعشرين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٠ = الموافق ٣ صفر سنة ١٣١٨

اللباس والعمران

حدَّثنا ثقة من ابناء هذه العاصمة قال: كان لي تجارة واسعة وكنتُ اضطرُّ الى مراجعة المحافظة في مسائل كثيرة فابعث اليها بخادم مالطي كان عندي فيقضي اشغالي على اتم المرام. وذات يوم بدا لي شغل ظننتهُ مشكلاً كبيراً لا يستطيع الخادم حلَّهُ فقضيت بنفسي ومضى الخادم معي وانا بالقفطان البلدي والفرجية وهو باللباس الافرنجي. فلما وصل الى الباب دخل امامي والبواب ينظر اليهِ بالخشوع والاكرام واردتُ الدخول وراءهُ فمنعني البواب فوقفت وانا لا ادري ما السبب. ولما قلتُ لهُ اني آتٍ لارى المحافظ شتمني واغلق الباب في وجهي. والتفت خادمي ورأى انني لم ادخل وراءهُ فعاد اليَّ وامر البواب ان يفتح لي الباب وقال لهُ اني سيدهُ. فوقف مبهوتاً وهو لا يصدق ما يسمع وانفتح لي حينئذٍ ان لبامي البلدي جنى عليَّ فعدت من المحافظة الى مخزن الثياب الافرنجية ولم اعد البس غيرها بعد ذلك اليوم

ولقد لقينا قُبَيْل كتابة هذه السطور رجلاً من مسلمي الهند درس وتفقَّه في المدارس العليا واطَّلع على تواريخ الامم واحوالها فسألتهُ مسائل شتَّى عن احوال بلاده وعن اللباس الذي يلبسهُ الآن جمهور الرجال الذين تعلموا في اوربا او في المدارس الكبيرة المنشأة حديثاً في بلاد الهند فعلمنا منهُ ان كثيرين منهم اختاروا اللباس الاوربي لا لانهُ اصلح من اللباس الهندي في بلاد الهند ولا لمجرَّد التمثُّل بالاوربيين بل لانهم وجدوا بالاختبار ان مَن يلبس اللباس الاوربي يكرَّم عند قومهِ وعند الاجانب اكثر مما يكرَّم اقرانهُ الذين يلبسون اللباس الاهلي. اي ان اهالي الهند جارون على الخطة التي جرى عليها اهالي مصر واهالي الشام مع ان الاوربيين الذين نزلوا بلادهم نفرٌ قليل جدًّا لا يعبأ بهِ بالنسبة الى عديدهم

ثم التفتنا الى بلاد يابان البلاد التي تفتخر بانها وقفت على رجليها غير معتمدة على غيرها فوجدنا ان لاهاليها لباساً خاصاً تفننوا في اتقانهِ وزخرفتهِ كما ترى في الصورتين التاليتين وهما صورة الامبراطور والامبراطورة باللباس الوطني لكنهم لم يقتوا عليهِ بل ابدلوهُ باللباس الاوربي الكامل فالرجال من الطبقات العليا والوسطى لبسوا كلهم اللباس الاوربي هم ونساؤهم وكذلك رجال الحكومة على اختلاف طبقاتهم ورجال الجيش والبوليس. وكل رجال البلاد لا يدخلون قصر الامبراطور الاَّ باللباس الاوربي الرسمي والامبراطورة لا تستقبل نساء اليابانيين الاَّ وهنَّ لابسات لباساً اوربياً

امبراطورة اليابان

امبراطور اليابان

ويذكر سكان هذه العاصمة ان ملك سيام ورجالهُ كانوا يلبسون اللباس الاوربي لما مرُّوا بالقطر المصري حتى ان الناظر اليهم لم يكن يفرق بينهم وبين اناس من الاوربيين السمر الالوان مع ان لباس السياميين الوطني بعيد بعداً شاسعاً عن اللباس الاوربي كما ترى في صورة ملكهِ سيام المرسومة في الصفحة ١١٤ من المجلد التاسع عشر

وواضح ان بلاد يابان وبلاد سيام اللتين لبس رجالها اللباس الاوربي مقتفيتان خطوات الاوربيين اكثر من كل الممالك الشرقية وقد ارتقتا اكثر منها كلها اما بلاد الصين وهي اكبر منها واغنى واقدم عمراناً فلم تقتفر خطوات الاوربيين في شيء حتى الآن ولا يزال رجالها ونساؤها باللباس الوطني القديم الدال على الراحة والرفاهة كما ترى في الصورتين التاليتين وهما

صورة ام امبراطور الصين وصورة البرنس كنغ عمهِ والتشابه واقع بين لباس الرجال ولباس النساء فلا عجب اذا تشابه الفريقان في حب السكينة وكراهة الحركة

فعلى مَ دخل الاسكندر ذو القرنين بلاد الفرس فلبس لباس اهلها وهو فاتح ظافر واقام بنو العباس في العراق فلبسوا لباس اهلهِ من القلانس والطيالس واما الاوربيون فيقتدى بهم ولا يقتدون باحد

ام امبراطور الصين

والمعتبر في ذلك لبس الرجال لا لبس النساء لان لابس الرجال صورة معلومة محدودة واما لبس النساء فلم يزل كثير التغيُّر والتقلب وهو يزيد تغيرًا وتقلبًا كل يوم وينظر فيهِ الى الزينة والزخرفة اكثر مما ينظر الى الفائدة . اما لبس الرجال فيقتصر النظر فيهِ على الفائدة والامتياز. فاذا نظرنا الى الامر الاول اي الفائدة لم نجد اثنين يختلفان في ان الرجل يستسهل العمل والانتقال وهو لابس لباسًا اوربيًا اكثر مما يستسهلهما وهو لابس ثيابًا واسعة الاردان

طويلة الاذيال تعيقهُ في حركاتهِ. فكأن الناموس الطبيعي القاضي بتغلُّب اصلح الامرين قضى بتغلب اللباس الاوربي على اللباس الشرقي اذا كان الانسان مضطرًّا الى السعي. ولقد كان الموجب الاول لاختلاف اللباس وكونهِ ضيقًا او واسعًا برد الاقاليم الشمالية وحر الاقاليم الجنوبية. فاهالي الشمال اضطروا ان يلفُّوا ابدانهم بثيابهم لفًّا لكي لا يدخل الهواء البارد اليها واهالي الجنوب اقتصروا على ما يظلل ابدانهم من حر الشمس ولا يمنع دخول الهواء اليها لتبريدها. ولا يزال الحرُّ على حالهِ في الاقاليم الحارَّة ولكن اللباس الاوربي المصنوع من نسيج حريري او قطني

عم امبراطور الصين

رقيق يقي منهُ ولا يعيق الانسان عن الحركة فتكون قد اجتمعت فيهِ المزيتان كما ان اللباس الاوربي المصنوع من نسيج صوفي سميك يقي من البرد ولا يعيق عن الحركة

هذا من حيث الفائدة. اما الامتياز وهو الغرض الاول من اللباس كما اننا سنبحث في مقالة مسهبة موضوعها "من الحلي الى الحلل" فقد اعترف الشرقيون رغماً عنهم ان الاوربيين فاقوهم في العلوم والفنون وانهم ممتازون عليهم حتى في بلادهم. فالاوربي مرعي الجانب اكثر من الوطني في هذا القطر وفي غيرهِ من الاقطار الشرقية وما القصة التي اوردناها في صدر هذه المقالة

سوى مثال ما يحدث كل يوم في المجالس والمخازن والبيوت والحوانيت. اي اذا تساوى اثنان عقلاً وعلماً ومالاً وجاهاً وكان احدهما باللباس الاوربي والآخر باللباس الوطني أُكرم الاول اكثر مما يُكرَم الثاني. ولاعبرة بافراد قلائل من ذوي المقامات العليا الذين يقضي عليهم مقامهم بلبس اللباس الوطني فان الذي يعرفهم يكرمهم بحسب منزلتهم سواء لبسوا لباساً اوربياً او وطنياً بل لا يكرمون باللباس الاوربي كأن اللباس الوطني لا يزال شعاراً مميزاً لهم

هذا ما يراهُ كل احد ولاسبيل لانكاره ولا لتغييره. والحكيم من جرى على مقتضى الحال وتشبّه بالممتازين حتى لا تبقى لهم مزية عليه. ولكن قضى سوء الطالع او شر الذين يئوون الشرّ للشرق ان امرّ ولاة الامر عندنا على ابقاء مزية يُفرَّق بها بين الوطني والاجنبي وهي "الطربوش" وزُين لهم انهُ اذا لبس الاوربي المنتظم في خدمتهم طربوشاً مثلهم كان ذلك علامة ظاهرة على خضوعهِ لهم. ولا ندري كيف جازت عليهم هذه الحيلة بل هذه الاضلولة وقد كان الاجدر بهم ان يقولوا للاوربيين اننا رأينا سفنكم اصلح من سفننا فابدلنا سفننا بها ورأينا مركباتكم اصلح من مركباتنا فابدلنا مركباتنا بها وجاريناكم في محاكمنا ومجالسنا ومدارسنا وبيوتنا ومنتدياتنا واكثر امورنا فعلى مَ لا نبدل لباسنا بلباسكم وهو اصلح من لباسنا حتى في اقليمنا الحار. وان كنّا قد ابدلنا لباس البدن كلهُ فعلى مَ لا نبدل لباس الراس وهو اسهل ابدالاً من غيره ونحن انفسنا قد ابدلناهُ مراراً فلبسنا العمائم والقلانس والطرابيش المغربية والاسلامبولية وتراناتفنن في هذه فتكون تارة لاصقة بالراس وطوراً مرتفعة فوقهُ نصف متر والعذبة العالقة بها تطول مرةً وتقصر اخرى وكلها ليس مما بقي الراس من حر الشمس فلا تفي بالغرض الذي وضعت لهُ

وخلاصة القول اننا اتصلنا بالاوربيين ونقلنا عنهم العلوم والفنون واخذنا منهم الآلات البخارية والكهربائية على تنوع اشكالها واختلاف اغراضها واعترفنا لهم بالتقدُّم علينا واقتدينا بهم في امور كثيرة لا تنفعنا بل تضرُّهم وتضرُّنا فعلى مَ لا نمثل بهم في امور اخرى نافعة بنفسها لهم ولنا وبها يزول امتيازهم الظاهر علينا. ولو استطعنا ان نقنع الاوربيين ليمثلوا بنا في كل شيء لكان ذلك اشرف لنا وادلّ على امتيازنا عليهم ولكننا لم نستطع ذلك ولن نستطيعهُ فعلى مَ نحاول المحال ونعاف الاقتداء بهم في امور تنفعنا ولا تضرُّنا

وغنيٌّ عن البيان ان الاقتداء بهم في اللباس لا يكفي ولا يغني عن الاقتداء بهم في العلم والعرفان والجد والاجتهاد ولكن الاقتداء في اللباس لا بدَّ منهُ اذا اردنا ان نسهل على انفسنا وابنائنا سبل السعي ولا نبقي للاوربيين مزيةً علينا